AL-TAFAHOM

33

التفاهم

السنة التاسعة صيف 2011 م. / 1432 هـ.

فصلية ■ فكرية ■ إسلامية

استراتيجيات التعايش وكفاءة الحوار بين العرب والغرب

عماد عبداللطيف ■

1 ـ السياق التاريخي للحوار بين الحضارات

الحوار الحضاري أو الثقافي هو «شكل من التفاعل بين القوى الاجتماعية، ووسيلة للتواصل أو لتجنب الصراعات وتلطيف المجابهات»[1]. وقد شهدت الإنسانية على مدار التاريخ مبادرات عديدة لصياغة العلاقة بين الشعوب والحضارات على أساس التعاون والحوار بدلًا من التناحر والصراع، مع أن الصراع بين الدول فيما مضى لم يكن بوابةً للفناء التام. نعم كان يُقتَّل آلاف البشر،

1 ـ انظر مقال: Qurong, S., (2001). Dialogue among Civilizations: Implications for International Relations, Journal of the China Institute of Contemporary International Relations.
المنشور على الرابط التالي:
http://www.uscc.gov/researchpapers/2000_2003/pdfs/dialo.pdf

■ أستاذ في كلية الآداب، جامعة القاهرة.

وتُباد قرى، وتُفرَّغ مدن من أهلها؛ لكن بذرة البشر لم تكن مهددة في أي وقت مضى بالاستئصال؛ لكن إنسان العصر الحالي ـ الذي لم يقنع بالسيف ولا البندقية ـ صنع بيديه من آلات القتل البلهاء ما يمكن أن يستأصل شأفته؛ مما لا يُبقي ولا يذر، فأصبح البشر مهددين جميعًا دون استثناء. وبقدر عِظَم الخطر الذي يمكن أن يؤدي إليه الصراع، يكون عِظم الحاجة لإحلال الحوار محل الصراع. وإذا كان الفناء هو النهاية المحتومة لأي صراع كوني في هذا العصر فإن الحوار يجب أن يكون سعيًا كونيًا معززًا بكل الطاقة التي تولدها غريزة البقاء.

لقد أدرك الكثيرون ـ ممن أرَّقهم تناحر البشر وتنازع الحضارات ـ عِظَم الحاجة للمصالحة، وعلى مدار العقود الأخيرة طرح كثير من المفكرين ورجال الدين والسياسيين دعوات ومشاريع لتجسير الفجوات بين البشر، وصياغة عالم يقوم على التعايش والتعاون. كان الحوار يطرح نفسه دومًا في هذه المشاريع والدعوات كأداة للوصول إلى هذا التعايش؛ إيمانًا بأن «إرادة الانخراط في الحوار لا يمكن أن تنفصل عن إرادة الحفاظ على السلام»[1].

في أواخر سبعينيات القرن العشرين طرح روجيه جارودي دعوةً للحوار بين الحضارة الغربية من ناحية، وبقية حضارات العالم من ناحية أخرى. كان ذلك في كتابه «في سبيل الحوار بين الحضارات» الذي دعا فيه الغرب للإفادة من التنوع الحضاري الهائل الذي تقدمه الحضارات الأخرى، وذلك بدلًا من نزعة التعالي الحضاري

1 ـ انظر: كلمة المنجي بوسنينه ضمن: Proceedings of the International Symposium on Dialogue among Cultures and Civilizations، مرجع سابق، ص58. وكل النصوص المترجمة في هذا المقال قمت بها بنفسي ما لم أنص على غير ذلك.

التي تفـوّت إمكانية التعلم من ثقافات العالـم الأخرى الغنية[1]. ومن هذه الزاوية كانت فكرة الحوار تعني تبادل الخبرات والمعارف، على أساس وحدة المعرفة البشرية مع تنوعها وتكاملها. كان الحوار يعني في جـذره الحقيقي التعلـم، وكان الطرف المدعو للتعلم هو نفسـه الذي دأب علـى القول: إنه لا يوجـد لدى الآخرين شـيء يمكن أن يضيفوه إليه، أو لنقُلْ: يتعلمه.

في أوائل التسعينيات أُعيد طرح الدعوة للحوار بين الحضارات في سياق تفنيد ومواجهة نظرية صمويل هنتنجتون حول صراع الحضارات. لقد ذهب هنتنجتون ـ في مقاله المنشـور في مجلة «شؤون خارجية» Foreign Affairs في عام 1993 بعنوان صدام الحضارات ـ The Clash of Civilizations إلـى أن صراعات المسـتقبل سـوف تكون صراعات بيـن الحضـارات التي تختلـف في أصولهـا الجوهريـة، وليس بين الكيانات الاقتصادية أو السياسية[2]، ورأى أن الحضارة الإسلامية أولًا والحضارة الصينية الكونفوشية ثانيًا سـوف تكونان جبهات المعارك مع الغرب في المستقبل.

لقد تعرضت نظرية هنتنجتون لتفنيدات متعددة، وتبلورت نظرية بديلة ترسـم مسـتقبلًا آخر للبشـرية؛ دعائمه الحوار لا الصراع، وغايتـه التعايش لا الهيمنـة، وأداتـه الفهم والتعاطـف لا التحيز والتعصب.

---

1 ـ انظر: جارودي، روجيه. (1977). في سـبيل حوار الحضارات. ترجمة عادل العوا، نشـر دار عويدات، لبنان، ط4 1999.

2 ـ انظـر، Huntington, S., The Clash of Civilizations? in «Foreign Affairs», vol. 72, no. 3, Summer 1993, pp. 22-49. ص23.

بعد سنوات قلائل تحولت هذه النظرية إلى عمل مؤسساتي دولي؛ ففي 4 نوفمبر تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم 22/53 الذي يجعل من عام 2001 عامًا للحوار بين الحضارات[1]. وقد دعا القرار حكومات الدول والأمم المتحدة إلى تخطيط وتطبيق برامج ثقافية وتعليمية واجتماعية لتعزيز مفهوم الحوار بين الحضارات، ويشمل ذلك المؤتمرات والندوات وتوزيع المعلومات. ومنذ ذلك الحين توالت الفعاليات السياسية والثقافية من لقاءات وندوات ومؤتمرات وإصدارات؛ تحاول جميعًا أن تُهيئ فضاءً للحوار بين الشعوب المختلفة، وأن تواجه طبول الحرب بنغمات الاتصال.

إنّ إرادة الانخراط في الحوار لا يمكن أن تنفصل عن إرادة الحفاظ على السلام

وهكذا يمكن التمييز بين مشروعين متمايزين للحوار بين الحضارات؛ الأول مشروع ثقافي والثاني مشروع سياسي. وفي حين يمكن التأريخ للأول بنشر جارودي لكتاب «في سبيل الحوار بين الحضارات»، يمكن التأريخ للثاني بخطاب الرئيس الإيراني السابق مُحمَّد خاتمي في الأمم المتحدة في عام 1998. وكلا المشروعين ـ رغم اختلافهما ـ يشتركان في كونهما رد فعل شبه مباشر على ممارسات أو مواقف غربية؛ فالمشروع الثقافي ردُّ فعل على دعاوى المركزية الأوروبية التي تروِّج لأسطورة أن أوروبا بخاصة والغرب بعامة هما محور تاريخ البشرية وعقل العالم، ومن ثم تتم إزاحة بقية ثقافات البشرية وحضاراتها نحو الهامش التابع، الذي يؤثر ولا يتأثر. أما المشروع السياسي فهو رد فعل مباشر على أسطورة

1 ـ يمكن الإطلاع على القرار على موقع الأمم المتحدة على الشبكة الدولية للمعلومات على الرابط التالي: http://www.unesco.org/dialogue/en/566.pdf.

أخـــرى لا تقل ذيوعًـــا وخطورة؛ هي أن مســـتقبل العالم القريب ســـوف تحكمه الصراعـــات الحضارية بين جبهة الغرب من جهة والكونفوشـــية والإسلام من الجهة الأخرى.

2 ـ دور العرب والمسلمين في طرح مبادرة الحوار بين الحضارات وتعزيزها

كلا الداعيَيْن للمشروعين الثقافي والسياسي ـ أعني جارودي وخاتمي ـ ينتميان ـ بدرجة ما ـ إلى حضارة الإســـلام وثقافته؛ لذا فليس من الجرأة القول بأن مشـــروع الحوار بين الحضارات هو مبادرة إســـلامية في المقام الأول؛ فقد كان للمؤسسات الثقافية العربية والإسلامية دور بارز في إزكاء الحوار بين الحضـــارات وتدعيمه ومســـاندته بعد الدعوة إليـــه، كما كان للمدن والأقطـــار العربية والإســـلامية دور كبير في اســـتضافة العديد من هذه الفعاليات[1]. وفـــي ديباجة تقرير المنظمة الإســـلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) عن أنشطتها في مجال الحوار بين الحضارات تذكر أن اهتمام المنظمة العميق بهذا الحوار يعكـــس إيمانها القوي بأن الحوار هو أفضل السبل لتحقيق التعايش المشـــترك بين الشعوب، ولإزالة أسباب سوء التفاهم وتشويه صورة حضاراتها وثقافاتها[2].

---

1 ـ انظر على سبيل المثال الأنشـــطة الثرية التي تضمنها تقرير المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيســـكو)، الصـــادر في منتصف عام 2008 عـــن «دور المنظمة في تعزيز الحوار بين الحضارات». على الرابط التالي:

www.isesco.org.ma/english/dialogue/Dialogue%20paper%20English%202007.pdf

تاريخ الدخول 4 أغســـطس 2008. ولصورة أوســـع للجهود العربية الإسلامية في الحوار بين الثقافـــات يمكن الرجوع إلى: ثابـــت، أحمد. (2004). العرب بيـــن الحوار الثقافي والانعزال. دار الوطنية الجديدة، دمشق، ص9ـ42.

2 ـ ديباجة الإيسيسكو، ص1.

قد لا يكون من المبالغ فيه القول: إن العرب من أكثر الشعوب اهتمامًا بمشروع الحوار بين الحضارات، ونظرة سريعة على حجم الأنشطة الفكرية والثقافية والفنية التي عُقدت من المحيط إلى الخليج كفيلة بالاطمئنان إلى حقيقة ذلك[1].

ربما يرجع هذا الاهتمام العربي بالحوار إلى حقيقة أن العرب ربما كانوا أكثر شعوب العالم تضررًا من غيابه؛ فقد أصبح العرب في السنوات الأخيرة مرمى سهام نظرية الصراع بين الحضارات وتطبيقاتها، الممثَّلة في سياسة الاستعمار الجديد، أدرك العرب - مفكرين وسياسيين - أن الحوار أداة مهمة لتغيير الصور النمطية السلبية التي تروَّج عنهم في الغرب. وأن الحوار هو الأداة الأساسية التي يمكن من خلالها تغيير هذه الصور، والكشف عن المرامي الخفية التي تحرك المدافعين عن نظرية الصراع، وإظهار أن المصالح النهائية للشعوب لا يحققها التقاتل بل المصالحة، وأن «مستقبل البشرية يكمن في تصفية الاختلافات بين الشعوب بواسطة الحوار بدل الحروب»[2].

3 - الحوار العربي / الغربي: تاريخه، طبيعته، وغاياته

لقد بدأت تباشير الحوار العربي/الأوروبي بعد حرب أكتوبر 1973، بعد أن ظهر العرب كقوة اقتصادية وسياسية كبيرة على

1 - انظر على سبيل المثال: تقرير الأيسيسكو عن نشاطاتها في مجال حوار الحضارات، ولاحظ أن معظم هذه الأنشطة حدثت في دول العالم العربي. انظر:
www.isesco.org.ma/english/dialogue/Dialogue%20paper%20English%202007.pdf

2 - انظر كلمة رئيس أيسلندا الأسبق *Vigdís Finnbogadóttir*، في مؤتمر الحوار بين الحضارات الذي عقد في اليابان في 31 يوليو 2001 على الرابط الآتي:
http://www.unu.edu/dialogue/papers/finnbogadottir-ks.pdf

الســـاحة الدولية[1]، واقترن هذا الحوار بتغير اســـتراتيجيات التعامل مع الغـــرب الأوروبي، ورغبة بعـــض الدول العربيـــة ـ خاصة مصر ـ في اســـتبدال الاســـتراتيجية التي تحكم علاقاتها الخارجية في شكل توثيق للعلاقات السياسية مع دول غرب أوروبا وأمريكا، على حساب العلاقات التي كانت وثيقة مع الاتحاد الســـوفيتي ودول شرق أوروبا في الخمسينيات والستينيات.

وعلى الرغم مـــن انقضاء عقـــود طويلة على هـــذه البداية إلا أن هذا الحوار ـ بحســـب مـــا يرى البعض ـ لم يـــؤت أكله؛ بل إن الصورة قد ازدادت ســـوءًا بعد أحداث الحادي عشـــر من ســـبتمبر وغـــزو العراق؛ فكلاهما دعم تصورات ســـلبية عـــن الطرف الآخر؛ فقد تذرع البعض بأحداث ســـبتمبر لإلصاق تهمة الإرهاب بالعرب بخاصة والمسلمين بعامة؛ بينما كان الغزو تجليًا بشعًا للغرب. ومع ذلك فإن الظروف تبدو ممهدة بشدة أمام العرب لاستئناف الحوار مع الغرب وتدعيمه؛ نتيجـــة للتغيرات الدولية الجذرية التي تحدث فـــي الوقت الراهـــن، ومـــن أهمهـــا بداية تشـــكل عـــالم متعدد الأقطاب. وهو ما يعني أن الحوار بين هذه القوى المتباينة ســـوف يكون أداة المســـتقبل للتعايش فيما بينها؛ إذ لم يعد العالم قادرًا على دفع تكاليف حرب كونية جديدة. وعلـــى الصعيد العربي، من المؤكد أن التغيرات السياســـية التي تجتـــاح العالم العربي باتجاه الديمقراطية سوف تعيد بعض الاعتبار للعرب كقوة دولية، وهو ما قد يضمن في المستقبل تراجعًا في سياسة الهيمنة لصالح سياسة التحاور.

---

1 ـ انظر: التويجري (1998). مرجع سابق، ص52.

لا يكفي أن يكون الظرف الدولي ممهدًا لكي ينجح مثل هذا الحوار؛ فثمة معارف أساسية لا بد من توافرها لدى أطرافه؛ ربما كان من أهمها معرفة أنفسهم ومعرفة من يتحاورون معه، وتحديد أي حوار يرغبون في تحقيقه، وأية أهداف يبتغونها منه. وسوف أقوم بمناقشة هذه المسائل بشكل موجز، وأبدأ بتناول هوية الأطراف المتحاورة؛ أعني العرب والغرب.

3 ـ 1. من العرب؟ ومن الغرب؟ وأيُّ حوار يمكن أن ينشأ بينهما؟

من الضروري تعريف المصطلحات التي سوف نستخدمها على مدار صفحات هذا المقال حتى يتيسر الفهم وتسهل المتابعة، وليس ذلك بالأمر الهين؛ فبعض المصطلحات المتخمة بالدلالات والشائعة الاستخدام مثل الغرب والشرق والأنا والآخر أشبه ببقع «الروشاخ» يرى كل شخص فيها ما يريد، وتعكس من ذات مستخدمها أكثر مما تعكس من جوهر كينونتها. قد يكون ذلك مخيبًا لآمال باحث غايته الضبط الاصطلاحي في بحث يسعى لأن يقدم نفسه بوصفه أكاديميًا، لكن هذا هو واقع الحال؛ فمصطلح مثل (الغرب) قد يحمل معنى الدول التي توجد في جهة الغرب من منطلق جغرافي، والتي تضم أوروبا وأمريكا؛ لكن أوروبا ذاتها تنقسم إلى شرقية وغربية. وقد يعني بالغرب أوروبا، لكن هذه الـ«أوروبا» ليست كيانًا منسجمًا لا تاريخيًا ولا ثقافيًا ولا حضاريًا، فهي تضم تركيا وألبانيا والبوسنة المسلمة، والڤاتيكان البابوية، وإنجلترا منبت الرأسمالية، وروسيا الشيوعية، وفرنسا الجمهورية وإسبانيا الملكية..إلخ. ـ والغرب كما يقول د. حازم الببلاوي ـ قد يكون خبرة تاريخية كالحروب الصليبية

أو الاستعمار، أو نظرية معرفية كالماركسية، أو اكتشافًا علميًّا كالمطبعة والبخار أو غير ذلك[1].

قد يبدو أن تعريف «العرب» أكثر سهولة؛ لكن هذا مجرد سراب. قد يكون التعريف الديمو-جغرافي سهلًا حين نقول بأن العرب هم من يعيشون بين الخليج والمحيط وعددهم كذا مليون نسمة. أما التعريف السياسي فيبدو أكثر سهولة؛ إذ يكفي أن تقول: إن الدول العربية هي التي لديها عضوية في جامعة الدول العربية؛ لكن مثل هذا التعريفات لا تقول لنا شيئًا كثيرًا؛ فالتنوع والتباين خصيصة أساسية للعالم العربي. ونظرة سريعة على عادات وتقاليد وأفكار ولغات عينة عشوائية من اليمنيين والسوريين والإماراتيين والسودانيين والصوماليين والموريتانيين تجعل المرء يقر بواقع التعدد والتغاير، وتجعله يردد بصوت مرتفع عبارة البلاوي «لا الغرب حقيقة واحدة ولا نحن كذلك»[2]. وعدم الوعي بواقع التعدد والاختلاف قد يقود إلى مشكلات كبيرة في إطار الحوار بين العرب وغيرهم من الشعوب[3].

إن واقع التباين والتعدد لا ينفي واقع التشارك والوحدة. قد لا يكون للغرب مفهوم واحد؛ لكنْ ثمة مشترك بين جميع مفاهيمه تجعله قابلًا للتعريف. وقد لا يكون العرب عضوًا واحدًا؛ لكن

1- انظر: البلاوي، حازم. (1999). نحن والغرب: عصر المواجهة أم التلاقي؟ دار الشروق، القاهرة، ص10.

2- البلاوي (1999)، مرجع سابق، ص10.

3- أوردت إيلين فيجالي أمثلةً للمشكلات الناتجة عن عدم التحديد الدقيق لمفهوم العرب في سياق الاتصال بين الثقافات المختلفة والثقافة العربية في الدراسة الآتية:

Feghali, E. (1997). Arab Cultural Communication Patterns. *International Journal of Intercultural Relations*. Vol 21, No. 3, pp. 345-378ص و349.

من المؤكد أنهم أعضاء في جسد واحد، قابل للتعريف كما هو قادر على التماسك. المشترك بين الغرب قد يكمن في التاريخ والجغرافيا والدين بشكل أساسي؛ فالغرب يشترك في كونه نتاجًا لعملية التحديث التي بدأت منذ عصر النهضة، وهو واقع بدرجة أو أخرى جغرافيًا في الشمال من العالم العربي، والمسيحية الدين الرسمي لمعظم أقطاره، كما أنه يشترك في بعض الجذور الفكرية؛ فهو يُعد نفسه امتدادًا للحضارة اليونانية القديمة، ونتاجًا مباشرًا لعصر الأنوار والثورة الصناعية في بدايات العصر الحديث. أما المشترك العربي فقد يكمن في اللغة والتاريخ والجغرافيا والدين. فالعربية هي لغة العرب، وتاريخهم مرتبط بشدة منذ ظهور الإسلام، كما أنهم يشكلون كتلة جغرافية ضخمة تكاد تقع على نفس خطوط العرض، والإسلام هو دين الأغلبية في معظم الأقطار العربية.

الحوار بين العرب والغربيين هو حوار بين بشر في الأساس. وهذا الحوار قد يكون سياسيًا أو ثقافيًا أو رياضيًا أو مجرد تواصُل إنساني

في إطار الاتصال بين الحضارات يصبح الاحتواء والشمول أفضل وأهم من الإقصاء والاستبعاد. وانطلاقًا من تلك القاعدة فإن مفهوم الغرب أو ـ العرب الذي سوف يكون عليه مدار حديثي ـ سوف يتسم بالشمول والاستيعاب، وهو يتحدد وفقًا لعنصرين: الأول ديمغرافي/جغرافي، والثاني زمني.

ولا بد أن أوضح في البدء أن الغرب ـ في إطار الاتصال ـ ليس إلا البشر، فالرمال والثلوج والمصانع والتكنولوجيا والمتاحف والدبابات لا تستطيع أن تشترك في حوار حضاري. البشر وحدهم هم من يستطيعون ذلك.

الغرب من الناحية الديمو-جغرافية هو البشـــر الذين يعيشون في قارة أوروبا مـــن أقصاها إلى أقصاهـــا، وفي أمريكا الشـــمالية وكندا واستراليا في دول يدين أغلب ســـكانها - ولو بشكل نظري - بدين غير الإســـلام. وهو من هـــذه الناحية يضم ما يقرب من 20% من ســـكان العالم، يشـــغلون ثلاث قارات من قارات الدنيا الســـت المعمورة. هذا العنصر يكتسب أهمية خاصة في سياق الحوار بين العرب والغرب. فهو من ناحية يؤكد أن الغرب ليس هو أوروبا الغربية التي مثلت الاستعمار القديم؛ بل هو أيضًا اســـتراليا وكندا وروســـيا بل وأمريكا وغيرها من الدول التي كانت موضع اســـتعمار لـــدول أوروبا الغربيـــة ذاتها. ولغة الغرب ليســـت هـــي الإنجليزيـــة أو الفرنســـية أو الألمانيـــة فقط؛ بل أيضًا الروسية والبولندية والتشـــيكية والبرتغالية..إلخ. وديانة الغرب ليست هي المسيحية فحسب؛ فالإســـلام واليهودية والبوذية والسيخية وغيرها تنتشـــر في ربوع هذا الغرب. وأخيرًا فـــإن الغرب لا يتكون من أقطار متشـــابهة من حيث النمو الاقتصادي أو طبيعـــة نظام الحكم أو الإيديولوجيا المسيطرة.

لا بد وأن يكون هذا التنوع حاضرًا في الأذهان في ســـياق التخطيط لحوار ناجع مع الغرب، فالعرب يحتاجون إلى أكثر من سيناريو للحوار. سيناريو يناسب الثقافة الأنجلوسكســـونية في إنجلترا وأيرلندا والولايات المتحدة ومعظم كندا واستراليا، وآخر يناســـب الفرانكفونية في فرنسا ومقاطعة كيبيك الكندية، وثالث يناســـب الثقافة الجرمانية في ألمانيا وسويسرا والنمســـا، ورابع يناسب الثقافة الروسية في روسيا وبعض دول الاتحاد الســـوفيتي الأســـبق..إلخ. والعرب يحتاجون كذلك إلى أكثر من لغة، فليس صحيحًـــا أن الإنجليزية قـــد غدت لغة الحـــوار العالمي في العالم، حتى وإن كان يتحدثها معظم المشـــاركين فيه؛ بل إن استخدام

اللغة الوطنية في بعض البلدان ـ كما هو الحال في فرنسا ـ يطوي الكثير من المسافات بين المتحاورين.

3 ـ 2. طبيعة الحوار العربي / الغربي

الحوار بين العرب والغربيين هو حوار بين بشر في الأساس. هذا الحوار قد يكون سياسيًا أو ثقافيًا أو رياضيًا.. إلخ، فرديًا أو جماعيًا، رسميًا أو غير رسمي، منظمًا أو عفويًا، متصلًا أو متقطعًا، وقد يقع في مدرجات الدرس أو على قارعة رصيف قطار، في قاعات ملكية أو في مقاهٍ شعبية، في مفتتحات الصحف أو بين طيات كتاب أو على شاشة تليفزيونية ملونة. ومن ثم فإننا أمام أنواع مختلفة من الحوار لكلٍ منها خصائصه وترتيباته وشروطه وأهدافه الخاصة، ويمكن تقسيمها بحسب العوامل الآتية:

1 ـ الخلفية المعرفية للأفراد المشاركين وانتماءاتهم الجغرافية أو العرقية أو الدينية: الأفراد المشاركون في الحوار يختلفون بحسب موضوع الحوار؛ فهناك حوارات أكاديمية متخصصة يشارك فيها أهل الخبرة من العلماء والأكاديميين، وأخرى دبلوماسية يشارك فيها رجال السياسة والحكم، وثالثة عامة يشارك فيها أفراد من عامة الشعوب..إلخ. كما يختلفون بحسب انتماءاتهم الجغرافية أو العرقية أو الدينية فهناك ما يُعرف بالحوار الإسلامي / المسيحي، والحوار العربي / الأوروبي، والحوار بين الشمال والجنوب، والحوار الأورو ـ متوسطي.. إلخ. وعلى الرغم من أن لكلٍ من هذه المشاريع أجندته الخاصة، وسياقه التاريخي الذي نشأ فيه فإن ما يجمعها هو أنها تتقاطع في أكثر من مكان مع الحوار العربي/الغربي.

2 ـ عدد المشاركين: فهناك حوارات فردية بين ـ شخصية تدور في فضاءات الحياة اليومية سواء على الأرض العربية أو الغربية ـ وأخرى جماعية يشترك فيها أفراد شتى.

3 ـ الإعداد والتنظيم: فهناك حوارات مؤسســاتية مجدولة يُعد لها بشكل مسبق، وأخرى عفوية تلقائية تحدث دون ترتيب أو إعداد مسبق.

4 ـ طبيعة الجماعة المنظمة للحوار: فهناك حوارات رسمية، ترعاها مؤسســات دولية أو حكوميــة، وأخرى أهلية شــعبية ترعاها مؤسســات المجتمع المدني، وثالثة شخصية يقوم بتنظيمها أفراد بجهدهم الخاص.

هذه الأنواع من الحوارات لا يفضُل بعضها بعضًا، ولا يجب أن نهتم بأحدها على حساب باقيها؛ فلكي يكون الحوار بين العرب والغرب ناجعًا يجب أن يكون شاملًا.

3 ـ 3. أسس الحوار الأمثل وسماته

على الرغم من التمايزات الســابقة يقوم الحوار بين الثقافات على مسلمات منها:

1 ـ الإيمان بالتعدديــة وقبول الاختلاف بين المتحاورين وما يمثلونه من ثقافات[1].

2 ـ الإيمــان بعدم إمكانية تطبيــق معايير التفاضــل والتراتب على الثقافات المختلفة؛ فليس من حق أية ثقافة أن تســم ثقافة أخرى بأنها دونية أو بدائية أو أقل تطــورًا أو متدهورة أو متخلفة أو رجعية على نحو ما شــاع في أدبيات الاستشراق الغربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بل والعشرين[2]. فالاختلاف لا يعني الدونية؛ بل مجرد الاختلاف.

---

1 ـ يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين: «الحوار لا يكون إلا مع التعدد، وإلا يكون حوارًا مع الذات». انظر: شــمس الدين، محمد مهدي. (1995). ضمن: الحوار سبيل التعايش مع التعدد والاختلاف. دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ص58.

2 ـ لتحليل شــامل لممارســات الاستشــراق الغربي يمكن الرجــوع إلى مؤلَّفي إدوار ســعيد الأساسيين: الاستشراق والثقافة والإمبريالية.

3 ـ الإيمان بـأن الحوار ممكن على الرغم مـن الاختلاف؛ حتى لو كان جذريًا.

4 ـ إيمان كل طرف أن الحوار هو اختيار اسـتراتيجي حتى لو كان قادرًا على القضاء على الطرف الآخر بالقوة؛ فالصراع لا ينتهي، وغالبُ اليوم هو مهزوم الغد. أما الحوار فـلا غالب فيه ولا مغلوب؛ بل تعايش وتنسيق واحترام متبادل.

إضافة إلى هذه المسـلمات توجد أسس عامة لا بد من توافرها في جميع أنواع الحوار بين الثقافات وأشـكاله، حتى يُضمـن نجاحها. وقد حددتها الإيسيسكو في ثلاثة أسس:

1 ـ الاحترام المتبادل.

2 ـ العدل والمساواة.

3 ـ مواجهة التعصب والكراهية[1].

هذه الأسـس التي تخص العلاقة بين المتحاورين يمكن استكمالها بواسـطة السـمات التي تتوفر فيما يسـميه عالم اللغويـات الإنجليزي نورمان فايركلوف «الحوار الديمقراطي democratic dialogue»، وهي:

4 ـ «أن بابه مفتوح لأي شخص، وكل المشاركين فيه لديهم حقوق متساوية في الكلام وواجبات متساوية في الاستماع.

5 ـ أنه حسـاس للاختلافات، يفسـح المجال أمام سـماع أصوات المختلفين، ويوجـب على الآخرين الاسـتماع إليهم والاعتراف بهم.

6 ـ أنه يعطي مساحة لعدم الاتفاق، والاعتراض، والتعدد.

1 ـ ديباجة الإيسيسكو، ص2.

7 ـ أنه يسمح بنشأة مواقف وهويات ومعارف وتحالفات جديدة.

8 ـ أنه كلام يؤدي إلى فعل»[1].

السـمات السـابقة تخص عملية الحوار ونواتجـه. وإذا أضفنا إليه الأسـس الخاصة بالعلاقة بيـن المتحاورين يمكن رسـم صـورة أولية للحـوار النموذجي بين العرب والغربيين الذي يعكس علاقات متسـاوية بين أطرافه، وقوى متساوية بين المشـاركين فيه، وغايات نبيلة، وسعي حثيث لأن يتجاوز القول إلى الفعل. وسـوف نحـاول تفصيل ملامح مثل هذا الحوار من خلال تمييزه عن غيره من أشكال الاتصال الأخرى.

3ـ 3. 1. الحوار مع الغرب: حوار أم جدال؟

الجدال شكل من أشـكال الاتصال بين طرفين، يدفع فيه المتجادل الحجـة بالحجة بهدف البرهنـة على صدق رأيه وصحتـه، وتفنيد رأي الطرف الآخـر والبرهنـة على نقصـه وخطئـه، وعلى الرغـم من أن الجـدال ينطوي علـى محادثـة لفظية، فإنـه توجد فـروق جذرية بين الجدال والحوار. ففي الثقافة الغربية يتم تصوير العلاقة بين الطرفين المتجادليـن بوصفها علاقة بين متحاربين، يحاول كل منهما «اكتشـاف نقاط الضعـف» في رأي مخالفه، و«سـحق» حجته، وغايـة الجدال هو «الانتصار» على صاحب الرأي المخالف. ومن ثم فإن الجدال في إطار الثقافـة الغربية ـ والثقافة العربية لا تختلف عنها في ذلك ـ لا يسـمح بالتعايش بيـن الأفكار المتصارعة، ولا يحتمل التسـويات؛ بل ينتهي إما بانتصار أحدهما وهزيمة الآخر، أو بهدنة مؤقتة يحشد خلالها كل طرف «أسـلحة جديدة» حتى يتمكن من «نسـف» فكرة مخالِفِه في أول فرصة

---

1 ـ انظر: Fairclough, N. (2000). Dialogue in the Public Sphere. In Sarangi, S & Coulthard, M. (Eds.) *Discourse and Social Life*. New York: Longman، ص182.

للنزال[1]! هـذا على النقيض مع الحـوار الذي لا يسـعى للانتصار على الآخر؛ بل فهمه والتعايش معه.

يرتبط بذلك ضرورة الوعي بأن الحـوار العربي/ الغربي لا بد وأن يكون سـلميًا؛ أي عاريًا من أي شكل من أشكال العنف. وخلو الحوار من العنف أمر ضـروري؛ لأن العنف «يؤذي المعتقـدات العميقة للآخر»[2]، ولا يمكن تخيل أن حوارًا يُخالطه العنف يمكن أن يؤتي أكله؛ إذ الحوار والعنف متنابذان، لا يحضر أحدهما إلا غاب الآخر.

3 ـ 3. 2. الحوار مع الغرب: حوار أم محاضرة؟

ليس الحـوار العربي/ الغربـي محاضرة يلقيها طـرف على الآخر، بهدف «تحديثـه» أو «تنويـره»؛ فالحـوار بينهما يجب أن يسـتند إلى الاعتراف المتبادل بالاختـلاف، والإدراك المتبادل لحقيقة أن الاختلاف لا يعني أفضلية طـرف على طرف أو علو طرف علـى الآخر. وربما كان فشل الكثير من الحوارات بين الثقافات راجع إلى التعالي الذي يمارسه بعض ممثلـي الثقافة الغربية ممـن يحلو لهم أن يتحدثـوا عن ثقافتهم بوصفها ثقافة كونية معيارية؛ يجب على الآخرين احتذاءها وتبنيها، وإلا اعتبرتهـم أدنى حضاريًا. فإذا ظن أحد أطـراف الحوار أنه يمثل ثقافة عليا أو عصريـة أو متقدمة، ونعت ثقافة الآخرين بالبدائية أو التدني أو التخلف تلاشى مبرر الحوار وحُكِم عليه بالفشل.

في كثير من الحالات قد لا تقلّ أهمية التعريف بالسلب عن التعريف بالإيجاب؛ فتعريف الحوار العربي/ الغربـي بأنه ليس جدالًا أو محاضرةً

1 ـ انظر: جـورج لايكوف ومارك جونسـون. (1980). الاسـتعارات التي نحيـا بها. ترجمة عبد المجيد جحفة، نشر دار توبقال، المغرب، 1996، ص22 ـ 23.

2 ـ نفسه، نفس الصفحة.

يؤدي إلى إجلاء طبيعة الحوار ذاته، وتحديد علاقته بالأنشطة الاتصالية الأخرى التي قد تتداخل أو تتشـابك معه. وربما كان من الضروري على المنخرطين في الحوار مع الغرب أن يُحددوا بشكل دقيق المفاهيم التي توجد في أذهانهم للحوار، وإعادة صياغة هـذه المفاهيم وفق الأهداف التي يسـعون لتحقيقها من خلاله. فالحوار بين الثقافات هو في النهاية نشاط شـبه نفعي؛ تتحدد طبيعته وفق الغايات المقصودة منه، ومن هنا فإن صياغة أهداف الحوار بوضوح أمر لا مفر منه في سبيل تحقيقها.

3 ـ 4. أهداف الحوار مع الغرب

الحوار بين العرب والغرب هو حوار بيـن حضارتين كلتاهما عميقة الجذور، موغلة في القدم، ولا ينقصها أسـباب الفخـر والاعتزاز؛ لكن الحوار الحضاري لا بد وأن يقوم على الشـعور بنقص ما، فمن يظن أنه كامل في ذاته أبعد ما يكون عن الاتصال مع الآخرين. وقد أدرك روجيه جارودي ببصيرتـه النافذة أن حديـث الغرب مع ذاته قد اسـتمر زمنًا كافيًا[1]، وأنه ربما آن الأوان لأن يسمع الآخرين.

من دون أن يـدرك الغرب أنه يحتاج إلى العرب من أجل مسـتقبله هو، سـوف يُكتب على الحـوار بينهما أن ينتهي إلى اللاشـيء، أو على الأقل أن يستمر في شكل تمثيلية سياسـية إعلامية، يتسلى بها مجموعة من البشر الذين يتظاهرون بسـماع الآخر؛ بينما هم غارقون في أصداء ذواتهم. وإذا كان ثمة درس يمكن تعلمه من ذلك فهو أن العرب الذين يسـعون للحوار مع الغرب لابد وأن يُظهروا حقيقة أنهم لا يسـعون إليه من أجل مصلحة العرب فقط؛ بل من أجل مصلحة الغرب أيضًا.

1 ـ انظر: روجيه جارودي. في سبيل حوار الحضارات. مرجع سابق، ص106.

يمكن التمييز بين نوعين من الأهداف التي قد يحققها الحوار بين الثقافات: الأول أهداف عامة؛ لا تخص حوارًا بعينه، ولا ترتبط بسياق زماني أو مكاني محدد. والثاني أهداف خاصة؛ يتم صياغتها بحسب ظروف كل حوار. وسوف أركز في هذا المقال على بعض الأهداف العامة التي يشترك فيها جميع أشكال الحوار وأنواعه.

3 ـ 4. 1. الحوار بين الثقافات بديل للصراع بينها

يرتبط هذا الهدف بالحافز السياسي لمشروع الحوار بين الثقافات، فمشروع الحوار في العقدين الأخيرين يكاد يكون رد فعل مباشر على أطروحة صدام الحضارات، وعلى الرغم من أن واقع الصراع هو المهيمن على خريطة العالم فإن حُلم إحلال الحوار محله لم يمت بعد؛ فلا زالت هناك أصوات عالية تحث على وضع الكلمة مكان البندقية.

3 ـ 4. 2. الحوار بديل الهيمنة

من دون الحوار والتفاوض لا سبيل لحل مشكلات العالم إلا بواسطة القوى المادية. وفي حين يحفظ الحوار الديمقراطي للأطراف المشاركة فيه استقلالها، ويضمن تحقيق المساواة فيما بينها بغض النظر عن مدى قوتها المادية؛ فإن الاعتماد على القوى المادية ـ كأداة لتسوية المشكلات ـ يُقسِّم العالم إلى فئتين؛ دول قوية مهيمِنة، وأخرى ضعيفة مهيمَنٌ عليها. والأمر ذاته ينطبق على ثقافات العالم وحضاراته، ومن هنا فإن خيار الحوار يبدو خيارًا استراتيجيًا للثقافات الثرية التي لا تؤازرها قوى مادية تماثل ثراءها الثقافي. وأظن أن الثقافة العربية في السياق التاريخي الراهن إحدى هذه الثقافات. إن الحوار بين الثقافات يُصبح من هذه الزاوية ضمانًا لأن تبقى ثقافات العالم حيَّةً، لا تتلاشى لصالح ثقافة واحدة مهيمنة، قد لا تكون بأية حال أثراها أو أرحبها.

3 ـ 4. 3. الحوار مع الآخر (الغربي) واكتشاف الذات (العربية)

الآخر مرآة الذات، والحوار مع آخر مختلف بوابة سحرية لمعرفة ذات لا تنكشف بسهولة لنفسها، وقد حفظ لنا التاريخ نماذج من تأثير «الصدمة» الحضارية التي تؤدي إليها رؤية الذات في مرآة الآخر، وحفظت لنا سجلاته كيف كانت مثل هذه الرؤية بالغة الأثر في أصحابها؛ فالمصريون ـ الذين أذهلتهم صورتهم المنعكسة في مرآة الآخر الفرنسي إبَّان الحملة الفرنسية ـ أصابهم شعور بالهزيمة الحضارية والانكسار الثقافي، ربما لم يبرأوا منه بعد.

الحوار بين الثقافات لا يؤدي إلى تعريف الآخر بثقافة الذات فحسب؛ بل تعريف الذات بثقافتها قبل كل شيء؛ فمن الثابت أن بعض المعارف والخبرات الإنسانية لا تُدرك بشكل عميق إلا من خلال محاولة توصيلها للآخرين، ومن هنا شاعت فكرة أن إدراك المرء لشيء ما يتغير حين يكتب عنه؛ أي حين يحاول نقله للآخرين، وأن فعلي الكتابة والتكلم هما فعلان معرفيان بقدر كونهما فعلين تواصليين[1]. من هذه الزاوية فإن الحوار بين الثقافات يتيح الفرصة أمام استبطان الثقافة العربية لذاتها، وبذلك يصبح الحوار مُثْريًا لطرفيه كليهما اللذيْن يتأمل كل منهما ذاته في مرآة الآخر، فتتعمق معرفته بذاته بقدر ما تتعمق معرفته بالآخر.

3 ـ 4. 4. تغيير الصورة الذهنية السلبية للعرب

على مدار قرون طويلة تشكلت صورة سلبية للعرب في المُخيلة الغربية؛ فمنذ انتشار الإسلام في بلاد الشام ومصر التي كانت خاضعة

1 ـ انظر: أفايه، محمد. المتخيل والاتصال: مفارقات العرب والغرب. دار المنتخب العربي، بيروت، 1993. الفصل الخاص بالكتابة واللغة الوطنية، ص154 ـ 162.

للاحتلال الروماني نشأ خطاب عدائي غربي موجه نحو العرب على وجه خاص والمسلمين على نحو عام، وقد أزكت حوادث تاريخية مختلفة من شراسة هذا الخطاب وعدائيته؛ خاصة أحداث 11 سبتمبر.

هذه الصورة تُصاغ باستخدام وسائط جماهيرية متنوعة مثل الكاريكاتير، والأعمال الأدبية، والمقالات الأكاديمية، وبرامج الترفيه التليفزيوني، والأفلام السينمائية، والأمثال، والكليشيهات، وتعريفات القواميس للمداخل اللغوية التي تخص العرب.. إلخ. وهي تستهدف المواطن الغربي العادي الذي لا يُتاح له غالبًا الوصول إلى مصادر صورة بديلة أكثر إنصافًا وأقل تحيزًا ويضعنا ذلك أمام أمرين: الأول: أن أي تخطيط لحوار ناجح مع طرف ما، لا بد وأن يكون واعيًا بطبيعة الصورة التي لدى هذا الطرف، والعوامل التي شكَّلتها وكيفية تفنيدها دون اتهام هذا الطرف بالجهل أو سوء الطوية؛ بل من خلال الكشف عن مظاهر العوار التي تعتريها، وعن شبكة المصالح التي تستهدف في بعض الأحيان بناءها، ومظاهر التلفيق أو التناقض أو التضليل التي تنطوي عليها في بعض الحالات. ثانيًا: أن أحد أهداف الحوار - وربما الهدف الأساس - لا بد وأن يتجه إلى تصحيح هذه الصورة، واستبدالها بصور أخرى تبرز الجوانب الأكثر إيجابية من الثقافات والمجتمعات المختلفة.

إنّ أي تخطيط لحوار ناجح مع طرف ما، لا بد أن يكون واعيًا بطبيعة الصورة التي لدى هذا الطرف

4 - في رفض الحوار مع الغرب

منذ ظهور مشروع الحوار بين العرب والمسلمين من ناحية أخرى والغرب طُرحت بعض الآراء المعارضة لهذا الحوار والمشكِّكة في

جـدواه، أو في النوايـا الحقيقية للطرف الغربي. ويمكـن الوقوف على توجهين أساسين للرفض؛ الأول يستند إلى «إيديولوجية» دينية ترى في الغرب شرًا متجسـدًا أصيلًا لا يُرتجى منه خير[1]، وترى أن العداوة بين العرب والغرب أبديـة لا تنتهي إلا بالقضاء التام علـى أحد الطرفين، ويمكن أن نطلق على هذا التوجه «الرفض المطلق للحوار»؛ لأنه لا يربط قبول الحوار أو رفضه بمتغيرات خارجية.

الموقـف الثاني يرفـض الحوار بين العـرب والغرب اسـتنادًا إلى التشكك في غرض هذه الدعوى في السياق التاريخي الحالي، ويرى أن هدف الدعوة الغربية للحوار مع العرب هو خدمة المصالح الغربية التي هي محرك كل شـيء؛ بل أصله كذلك. وهذا التوجـه للرفض يمكن أن يُنعت بالرفض التاريخي.

كلا التوجهيـن يتصـور الحـوار على أنـه عملية تسـليم لا عملية تفاوض، وواقـع الحال أن الأمر على خلاف ذلـك؛ فالحوار لا ينطوي على تسليم طرف لآخر؛ بل هو عملية تفاوض حول الأفكار والاتجاهات ووجهـات النظر؛ فالحوار الحضـاري لا يعني أن تسـلم الحضارة (أو الثقافة أو الأمـة) الأضعف للأقوى؛ بل أن يتعلـم كلاهما ما يمكن أن ينفعهما كليهما أيضًا.

يقوم الـرأي القائل بأن الغرب هو الشـر المتأصل الذي لا يفلح الحوار معه على إغفـال الخبرة التاريخية في الوقت الذي يدَّعي أنها تعضده؛ فالغرب ليس هو السياسـة أو الاسـتعمار أو بعض الأفكار أو الآراء العنصرية فحسـب؛ بل هو أيضًا ملايين البشر الذين يرغبون

1 ـ انظر على سبيل المثال كتاب محمد مورو: الإسـلام وأمريكا حوار أم مواجهة؟ نشر دار الدبس، مصر، من دون تاريخ، ص84.

في العيش في سلام وتفاهم مع جميع البشر، ويمثلون الطليعة المقاومة لنزعة الهيمنة الغربية ذاتها. الغرب ليس هو السياسة الغربية فحسب؛ بمثل ما أن العرب ليسوا هم الحكومات العربية فحسب. أما فكرة أن شعب من الشعوب هو شرير بطبعه أو أن الشر متأصل فيه فهي تقوم على تعميم مخلّ. وهذه الفكرة ذاتها هي التي يحاول فريق من المستفيدين من «اقتتال الحضارات» في الغرب أن يروج لها، مع الفارق أن الطرف الشرير يمثله في نصوصهم العربي أو المسلم.

أما حجة أصحاب الرفض التاريخي فإنها بالأحرى حجة على أهمية الحوار، وليست حجةً على نبذه؛ فإذا كان هدف الغرب هو مصلحته الذاتية فإن الحوار هدفه في الأصل التقريب بين مصالح الطرفين وتحقيقها في إطار من التعايش والمصالحة. إن المصلحة الحقيقية لأية جماعة ترغب في توفير حياة آمنة لشعبها هو الاحتفاظ بعلاقات مسالمةٍ وتعايشٍ مع الجماعات المحيطة بها، وإلا فسوف تكون عرضة للقلاقل ونهبًا لعدم الاستقرار. المصالح الحقيقية للشعوب تحتاج إلى إطار من العدالة والتسامح والحرية والمساواة يعمُّها جميعًا، والحوار فيما بينها أداة من أدوات الوصول إلى هذا الإطار؛ فالمصالح لا تُلغي ضرورة الحوار؛ لأن للمصالح حوارها أيضًا. أما أن الحوار سوف يُستخدم كقناع للاستغلال والسيطرة، فإن كل طرف من أطراف الحوار عليه أن يُحدد أولوياته ومصالحه وأن يسعى من خلال الحوار لرعايتها، كما أن عليه تحديد الثوابت التي يرى أنها لا تخضع للتفاوض؛ بل يستطيع أيضًا أن يُحدد شروط ومنطلقات للحوار، ويتمسك بها، ومن ثم فإن الحوار ليس اختيار الضعفاء أو غير الواعين؛ بل اختيار الأقوياء المتبصرين.

التفاهم
AL-TAFAHOM

نحو خطاب إسلامي متوازن

من كتّاب العدد

رضوان السيد
إلياس بلكا
محمد الحدّاد
محمد عفيفي
محمود إسماعيل
أحمد أبو الوفا
سعيد بنسعيد العلوي
كانديدو مانديس
دوغلاس ليونارد
محمد الناصري
عواد علي خضير
نصرالدين بن غنيسة
محمد زاهد جول
عماد عبد اللطيف
حاتم الطحاوي
عمرو عبد العزيز منير
معتز الخطيب
هانز غاوبه
عبد الله بن علي العليان
ناثان براون
خالد الجندي، وروري ميللر

سورة البقرة - الآية 115

سعر البيع :

سلطنة عُمان (ريال واحد)
الأردن (1،5 دينار) ■ الإمارات (10 دراهم) ■ مملكة البحرين (1،5 دينار) ■ تونس (ديناران) الجزائر (125 ديناراً) ■ السعوديّة (15 ريالاً) ■ السودان (125 جنيهاً) سورية (75 ليرة) ■ العراق (1500 دينار) ■ قطر (15 ريالاً) ■ الكويت (1،5 دينار) ■ لبنان (3000 ليرة) ليبيا (1،5 دينار) ■ مصر (5 جنيهات) ■ المغرب (20 درهماً) موريتانيا (200 أوقيّة) ■ اليمن (90 ريالاً).

EU (4€) UK (2£)
USA & Other Countries (3$)

9 789953 638317